

## الأنة السحرية في منظومة محمد إقبال الفكرية

د. محمد عفان \*

في الهزيع الأخير من الليل، حينما ينخطف لون القمر ويهت ضوءه، وتستعد النجوم المتألقة لتتوارى، وتتأهب جحافل الظلام لتقابل جنود النور، ويخيم الهدوء الجهات الست، ويسرى سكون رخي رخي مخدر في كل شيء، فترتخي الأجفان وتهدأ العيون، وتستكن الأجسام، ويطيب الرقاد، ويلذ الفراش، وتتحكم قبضة النوم، فتستيقظ الروى والأحلام... آنذاك تتوجه الدفقات الإلهية الخاصة نحو الأرض، وتغشى سحب رحمته، وتهمر ديم بركته... ينزل الرب الكريم الرحيم الودود على سماء الدنيا مناديا مجيبا فمستجيبا: هل من سائل فيعطى سؤاله؟ هل من داعٍ فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟.. هل من تائبٍ فيتاب عليه؟... وعلى هذا النداء الرباني يصحو عباد الرحمن مستبشرين متهللين خاشعين منيبين مستغثين مستجيبين، مستقبلين بركاته ونعمائه وغفرانه ورضوانه. وترتفع الأنات والآهات وأزيز المناجاة، وتسيل الدموع على الخدود خوفا من عذاب القهار الجبار، وطمعا في رحمة الستار الغفار، وتضطرم الأشواق، وتحن الأماني وتحلق إلى السماء، وتزول الأحزان وتذوب الأشجان، وتصفو القلوب وتنتشي الأرواح، وتسكر النفوس بالرحيق الإلهي، وتجد النفوس المتعبة المتهاكة القوة والغذاء والزاد والراحلة للسفر الشاق الطويل إلى جنة الرب الجليل... في ثلث الليل الأخير... عند السحر... يتبدد ظلام القلب فهو مستنير هاد واع، ويسقط غشاء البصر فاذا هو حديد، وترتفع الحجب وتتكشف الأسرار، وتفتح أبواب المعاني والحكم، فتظهر الأمور على حقيقتها، والدنيا وما فيها على صورتها وهيئتها...

"حينما تبين حقير يصير غشاوة لعيني، وحينما آخر، في لمحة أرى كلا

\* الأستاذ المساعد قسم اللغة العربية وآدابها جامعة غلام شاه بادشاه، راجوري

العالمين...

وادي العشق وإن بعدت مسافته وترامت أطرافه، إن سفر قرن من  
الزمان يطوى أحيانا بأنة واحدة

جد في السير ولا تتركن أهداب الأمل، فقد يصادفك كنز عظيم في الطريق"  
كان إقبال يعرف قيمة هذه اللحظات، هذه اللحظات الثمينة الحلوة في السحر،  
والقيام والمناجاة فيها، بل هو من أعرف العارفين بقيمتها ومكانتها، بل إنه يعتبر أفكاره  
وأشعاره ومعانيه وتجاربه نتاج وحيها وإلهامها وحصيلتها وحصاها. ولم لا، فقد ورث  
حب هذه اللحظات وتقديرها من أبيه، ومن البيئة التي كان يعبق جوها بشذاها.  
فلإسحار أهمية ملحوظة في المنظومة الفكرية لإقبال، وعشرات الأبيات تدل على  
اعتزازه به، وإدراكه لأهمية تعاطيه وإدمانه في تكوين شخصية الفرد المسلم والمجتمع  
الإسلامي، وعلاج الأمراض والأدواء، وكيف لا وهو طالب الإسلام المجد الذي أنفق  
حياته في دراسته ثم الدعوة إليه كنظام حياة كامل شامل؟ هل كان من الممكن أن  
يفوته هذا الجانب وهو تلميذ رومي وسائح روضات العطار والغزالي والسنائي. ألم  
يعرف لفلسفة "الذات"؟ فهل يمكن تعزيز الذات، وتفجير قواها، وإثارة كامنها، وتحريك  
راكدها، وإيقاظ هامدها، والارتقاء بها بعيدا عن اقتناص تلك اللحظات؟ فلا عجب  
إذا اعتبر الأستاذ أبو الحسن على الحسيني الندوي "الأنة السحرية" أحد العوامل  
الرئيسية في تكوين شخصية إقبال وعقليته إلى جانب الإيمان والقرآن ومعرفة النفس  
والمثنوي المعنوي.

يمكن تقسيم أبيات إقبال التي تتحدث عن السحر والإسحار، والدعاء والمناجاة  
في هذه الساعات إلى قسمين رئيسين؛ قسم يتعلق بذاته، أعني الأبيات التي أودعها  
مشاعر اعتزازه بالأنة السحرية، وموقفه منها وتجاربه الخاصة فيها، وقسم يشيد فيه  
الشباب المسلم بالتوجه إلى تلك اللحظات واغتنامها والاستفادة منها، ويتحسر على  
ذهاب عادة الإسحار من الأمة الإسلامية فردا وجماعة وقيادة.

على كل حال الشاعر الإسلامي الكبير شديد الاعتزاز بالمناجاة السحرية، ودائم

الاحتفاظ بالسويغات الحاملة الضبابية الندية، هو مدمن راحها، وأسير لذتها، وقتيل حمياها، وكلما ناولها، وثمل بها، تفجرت شاعريته، واهتزت أوتاره، وغنت قيثارته، وأضاءت آفاقا وكشفت أسراراً. "خذ مني ما شئت يا رب! ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر، ولا تحرمي نعيمها".

ويقول في موضع: إن تجلياتك لم تستطع أن توفر لقلبي الظمان الهيمان الراحة والسلوان، فاستمر نحبي وبكائي وأهاتي آناء الليل وفي غضون السحر، لم ينقطع ليوم، إن هذا القلب لا يسلو إلا اليوم الذي يلقي حبيبه.

بل يرى إقبال أن حياته ليست إلا عنوان مناجاة ليلية طويلة وأنة سحرية مستديمة، فيقول في بيت: من سكون المساء حتى صخب الصباح تمر الحياة بآلاف مراحل الأنات النصف الليلية. كما يقول في بيت آخر: إن ألم هجراني يأخذ ألوانا كثيرة، ويظهر في مظاهر شتى، فحينما يأخذ لون الحيرة، وحينما يتجلى في حال اللذة والسرور، وحينما آخر في مظهر الأنة السحرية.

وعلى هذا لا يرضى إقبال بديلا للسويغات اللذيذة المنتشية التي يقضيها في مناجاة ربه كل ليلة. فهو يواظب عليها في الحل والترحال، في البيت وخارجه، وفي الوطن وبعيدا عنه في الأوطان الأخرى، لا يحبسه عنها تحول الفصول وتغير المناخ والأجواء، قيظ الحر وزمهرير الشتاء، حتى نعومة الحياة الفارحة في إنجلترا، ببريقها ولمعائها وصخبها ومهرجتها، وكم سلبت هذه الحياة الأوربية إيمان المؤمنين ويقين الموقنين، وقد تلجج سراج إيمان إقبال، ولولا المرشد الرومي لهوي صريعا، وضاع كما ضاع كثيرون، هذه المناجاة الربانية صانت روحه من التشظي والتفكك والانهيال: "رغم أن شتاء إنجلترا كان قارسا جدا، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف، ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام".

إقبال فخور جدا بالسويغات التي يقضيها في مناجاة ربه. يقول لربه مناجيا متباهيا: يارب! دنياك هذا الكون وهذه المادة. أنت خالق كل شيء ومالكه. بينما رأس مالي ودنياي هي الأنات السحرية في حضورك.

الأنة السحرية زاد قلبه وقوت روحه؛ لو حرم منها يذبل ويذوي وقد يموت. بزيتها يتهوج سراجها وبمدادها يسطر قلمه. هي التي تعصمه من هجمات القلق والاضطراب واعتداءات الشك والارتياب، وتؤفر له الدفاء والأمان والشعور بالسلام. يقول: ياقلب لا تترك الأنة السحرية... قد تجد الأمان في تكبير "الله هو".

وما دامت الحياة ألما وسرورا، حيننا يقطف الإنسان أزهارها وحيننا يدمي أيديه بأشواكها. شاعرنا يمر بما يمر به الإنسان العادي. ولكن منا من يحسب كل صيحة عليه. فيتفجع للبلبيات ويموت هلعا من الملمات. ولكن كلما اشتدت وطأة الحياة على شاعرنا، وواجهتها مشاكلها وعواصفها، لم ينكسر ولم ييأس، وكيف يضعف ويستسلم ولديه سهام الليل، لم يخطئ رامها هدفها أبدا. يقول في بيت: "قد جاءتني رسالة الأنة والبكاء والدعاء في جوف الليل...تمهل أيها المسافر لعل مرحلة عسيرة قد صادفت الطريق".

الأنة السحرية لها قوة عظيمة، فيها طاقات هائلة مستورة، لو انتفع بها الفرد أتى بالمعجزات، ولو استفادت منها الأمة صارت الدنيا غير الدنيا... وإن هذه الأمة إن تريد أن تقيل من عثرها وتنهض من كبوتها فعلها أن تحي التقاليد التي بالتزامها تسلمت مقاليد العالم، وفتحت لها خزائن السموات والأرض. يقول في مطلع قصيدة مخاطبا الزعماء الروحانيين من العلماء المتصوفين الذين قد تخلوا من روح الإسلام الحقيقية، وضلوا في متاهات الطقوس والتقاليد، وتشبثوا بالقشور، واقتنعوا بها، فعميت أبصارهم عن إدراك الحقائق، وعجزت عقولهم عن معرفة كنه الأشياء وجوهرها.. حتى فاتهم معاني الأنغام السحرية التي يطلقها الشاعر: يا قادة الإسلام الروحانيين، اترك التقاليد القديمة وحاول فهم معاني أنغامي السحرية"، وما أنغامه السحرية إلا الدعوة الهادئة الصارخة إلى استعادة المكانة التي فقدها الإسلام في قيادة البشرية.

الشباب هم معقد آمال إقبال ومناطق أمانيه. وكم خاطب شباب أمته وأهاب بهم وناشدهم. "...يتمنى إقبال على الله أن تتعدى هذه الأنة السحرية والحرقه القلبية إلى

شباب الأمة المتنعمين، فتحرك سواكن قلوبهم، وتنفخ الحياة في هياكلهم. يقول في قصيدة: اللهم! جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية، وأيقظ الآمال والأمانى النائمة في صدورهم، بنجوم سماواتك التي لا تزال ساهرة، وعبادك الذين يبيتون الليل سجدا وقيامًا، ولا يكتحلون بنوم، ارزق الشباب الإسلامي لوعة القلب، وارزقهم حبي وفراستي"، ويقول في قصيدة: اللهم ارزق الشباب أنتي في السحر، وأنت لصقور الإسلام القوادم والخوافي، التي تطير بها وتصطاد، وليست لي أمنية يا رب! إلا أن تنشر فراستي، ويعم نور بصيرتي في المسلمين".

ويقول في شعره ويتخذ لشعره تعبير "نغمة السحر". لا عجب، من الممكن أن تستيقظ وتلتهب من أنغامي السحرية الشرارة الخادمة الهامدة في ركامك. ويقول في مكان: ابحث عن حظك في فضاءات شعري... في دعاءاتي وابتهالاتي عند الفجر.. تجد فيها دنيا جديدة. فإن اللؤلؤ الثمين الذي يخلو منه حتى أحضان الأصداف وجدته في الدموع عند السحر. كذلك يقول في بيت: بكاءك في السحر ثمين جدا.. أكبر من أن يقدر ثمنه.. وهذه الأنة السحرية والبكاء الفجري حياة نخيلك، بها اخضرارها واهتزازها. الإسلام يقيم توازنا حكيما بين المادة والروح، فهو لا يدع ينمو ويقوى بعضهم البعض على حساب بعضهم البعض. وكلما نال هذا التوازن الإفراط والتفريط اختل النظام. والعصر الذي عاش فيه إقبال ونعيش فيه هو عصر غلبة الروح على المادة. وكان لها آثار مدمرة شكا منها إقبال كثيرا. والأنة السحرية تمثل الجانب الحميم للروحانية في الإسلام. بها قادت هذه الأمة البشر نحو الخير والسعادة، وقدمت حضارة إنسانية وارفة الظلال. وعندما تخلت عنها صارت حضارة آلية فيها كل ما يريح الجسم ولكن ليس فيها ما يفي بحاجات الروح، ويداوي جراحه. فيتحسر إقبال على ضياع التقاليد الإسلامية الجميلة، العبادة في سكون الليل، الخلوة مع رب العالمين، الدعاء والمناجاة في حضوره، الدموع والانتحاب أمامه. فيقول في بيت: ضاعت محافلك وضاع رجالها، وذهبت أنات الليل كما ذهب بكاء الصباح. ويقول أيضا: إن حرمان الشباب من لذة الأنة السحرية ومقامات الشوق والسرور والنظر هو نوع من العذاب والنقمة".

بل يرى إقبال أن هذه الأمة محرومة منذ زمن طويل من درويش قلبه يقظ بالأنة السحرية. ولا شك أن الدرويش الذي يفتقده ويبحث عنه هو من كان مثل بكر وعمر وعثمان وعلي وصلاح الدين الأيوبي وجنيد البغدادي وبايزيد البسطامي والرومي والغزالي وأحمد السرهندي وشاه ولي الله الدهلوي ومعين الدين جشتي ونظام الدين أولياء، النفوس الخالدين الذين رووا دوحة الإسلام على هدى ربهم ببصيرتهم وحكمتهم وعلمهم ووعيمهم ويقظتهم وروحانيتهم ودماء قلوبهم وأناتهم السحرية. فيتمنى ظهور درويش يستمد ضياء عينيه وسنا قلبه ونور عقله من الأنة السحرية، فيغير مجرى التاريخ ويأخذ بيد البشرية إلى ما فيه سعادتها في هذه الدنيا وفي الآخرة... وعلى هذا ينصح المسلمين أن يصلوا ما انقطع من السماء، ويقوموا أمام الله في الليل بكل خشوع وخضوع، ويمرغوا جباههم أمامه ويستغفروه "ويرسلوا سفراء دعاءهم ومناجاتهم إلى السماء، ويجعلوا النجوم والكواكب والكائنات السماوية أمناء سرهم".

في جانب آخر ليست الأنة السحرية عمل عبادة سلبيا من منظور إقبال. إنها شئ حيوي ولازم مثل الماء والغذاء والهواء لبقاء الروح والجسم متماسكين، وللارتقاء بالذات والارتفاع بها نحو السمو والعلاء، وتخليصها من شرنقة المادة ومجالها الضيقة، والانتفاع المثمر بالطاقات التي يتمتع بها كل فرد. فيقول في قصيدة حوارية عنوانها "أذان": إنه لو عرف لذة قيام الليل وذاق طعم السهر عند السحر، فهذا الطين الغامض المليئ بالأسرار (الإنسان) أرفع مقاما من الثريا.

خلاصة القول هي إن إقبال يرى قيام الليل، والدعاء والمناجاة أمام الرب الجليل في سكون الليل وهدوء السحر، وذرف الدموع في حضوره، وإرسال الأناث والآهات إلى السماء ضروريا لوجود وإيجاد مجتمع إنساني هو في رفته وعذوبته ولمسته الحانية مثل نسيم الصباح.

#### المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم
٢. الأحاديث النبوية

٣. إقبال كامل، عبد السلام الندوي، دارالمصنفين، شبلي أكاديمي، أعظم جراه، الهند،  
٢٠١٤

٤. رهبان الليل، سيد بن حسين العفاني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٣

٥. روائع إقبال، أبو الحسن على الحسيني الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، لكتناؤ،  
الهند، الطبعة الخامسة

٦. في ظلال القرآن، سيد قطب، المجلد السادس، الطبعة الشرعية التاسعة والثلاثون،  
القاهرة، ٢٠١١

٧. كليات إقبال فارسي، مكتبه دانيال، لاهور:

<https://ia801203.us.archive.org/14/items/KulliyatElqbalFarsiWithUrduTranslation/Kulliyat-e-Iqbal%20Farsi%20With%20Urdu%20Translation.pdf>

٨. كليات إقبال (فارسي)، محمد إقبال، شيخ غلام ايند سنسز (برائيويت لميتيد،  
بيلشر)، لاهور، تاريخ الطبع غير مذكور

٩. كليات إقبال، محمد إقبال، أردو، مركزي مكتبه إسلامي، نئي دلهي، ٢٠٠١

١٠. لسان العرب، ابن منظور، الجزء السادس، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان،  
الطبعة الثالثة، تاريخ الطبع غير مذكور

١١. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، مصر، الطبعة  
الرابعة، ٢٠٠٤